

حوار حول الضمير

شخصيات المحاوره:

- صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.
- سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.
- حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.
- ستيفاني: مديرة بنك.
- خديجة: إعلامية.
- علاء: صاحب مطعم فول مشهور.

صونيا: قرأت عبارة لأحد الصوفيين منذ عشر سنوات ونيّف ما زالت عالقةً
بذهني وما زلت أرددها بيني وبين نفسي مرات ومرات. تقول العبارة: طوبى للذين
أبعد الله مداركهم وعزز مسالكهم فنعموا بمعرفتهم وما زالوا بتلك المعرفة يتنعمون،
ومن روافد نهر العقل الكلي يغترفون، ومن كؤوس حقائقه يشربون، فنديمهم هو
التأمل والتفكير، وحببيهم هو الذي يروونه على مرايا مداركهم، وأنيسهم هو الذكر
والمذاكرة. نحن مجتمعون اليوم لتذكر مقومات هويتنا الإنسانية، ونتذكر في تحقيق
تلك المقومات.

خديجة: أنا أشك أنه يوجد في هذه الحياة الدنيا مقومات لأي شيء، مهنتي كإعلامية
علمتني أن أجري وراء الأحداث والأحداث دائماً متحركة ودائماً متغيرة وهي وليدة
تقاطع عدة عوامل وليست وليدة مقومات.

حسام: والإنسان كذلك يظن نفسه سيداً لتصرفاته، فعقله يتحكم بمجرى عواطفه
وأحاسيسه وغرائزه. ولكني في أغلب الأحيان أؤكد أنّ عمل العقل هو ردة فعل
وليس فعلاً. تفعل الغرائز والأحاسيس ما يتلاءم مع شهواتها ومصالحها ويأتي العقل
لاحقاً ليجمع الأدلة المنطقية والمقدمات المنهجية ليستنتج من كل ذلك نظريات
ومقومات تبرر ما قامت به الغرائز والأحاسيس.

سليمان: بقولك هذا تكون قد أنزلت العقل من منزلة القائد الى منزلة الخادم فجعلت
حقائق العقل تخدم شهوات الغرائز وليس العكس. أنا شخصياً لا أخالفك الرأي إذا ما
أردت أن أبني على ما أراه من تصرفات الناس على ساحة الحياة اليومية، فمعظم
الناس تسيرهم أهواؤهم وغرائزهم ويأتي العقل في مرحلة متأخرة ليحاول تبرير
تصرفات تلك الأهواء والغرائز بمنطق يمكن أن يطلق عليه اسم المنطق التبريري.
وفي كثير من الأحيان لا يأتي العقل مطلقاً ولا يحاول التبرير ويترك التصرفات
غرائزية بحت ومن لا يعجبه ذلك فليضرب رأسه بالحائط.

ستيفاني: في القديم كان الذهب مقوماً ثابتاً نقيّم به قيمة الأشياء، والعملية اليوم
أوراق تكفلها دول هي نفسها بحاجة الى من يكفلها، وتتلاعب بها بورصات لا أحد
يدري من يتحكم بتحركاتها. فإذا كان إنتاج الكرة الأرضية من البترول مثلاً في

اليوم كذا مليون طنّ تداولت البورصة بأضعاف هذا الإنتاج بيعاً وشراءً، وهكذا القمح والبنّ والحديد وسائر السلع. كل هذا يثبت إنعدام المقومات كما قالت خديجة فنحن نقف على أرض متحركة وليس على أرض ثابتة، ومصيرنا هو رهينة في يد قوى غاشمة مستبدة متوحشة تتجلبب بجلباب العدالة والحضارة وحقوق الإنسان.

يسألني أصدقائي هل نقلب أرصدتنا الى دولارات أم نتركها بالعملة المحلية فأقول لهم: لا هذا ولا ذاك إشتروا بها أرضاً وازرعوها صنوبراً وزيتوناً وتفاحاً لا شيء باق إلا الأرض، ولا حقائق في هذا الوجود إلا الله والإنسان والأرض.

علاء: لا يمكن تجاهل المقومات الأساسية التي يقوم عليها الشيء ليكتسب هويته كشيء له خصائصه المميزة، فصحن الفول إذا لم يتبدّل بزيت زيتون صاف غير مخلوط بزيت نباتية وليمون حامض قطف وثمر حقل طازج وملح خشن مطحون، وإذا لم يقدم معه صحن خضار بعيد عن الكيمياءيات ورغيف خبز قمح، فهو لا يملك مقومات صحن الفول.

أنا شخصياً أسأل نفسي هل أنا رجلٌ صالحٌ أستطيع أن أنام بضمير مرتاح ونفسي مطمئنة نعم أم لا فأجيب نفسي أنني أقوم بعملتي حسب الأصول، فأنا قد وصلت الى مرتبة ما يقارب الكمال في نوعية عملي. والإنسان هو عمله بالدرجة الأولى، وهذا العمل يجب أن يستند الى علم يقيني وليس الى علم وهمي، فالعلم اليقيني لتقديم صحن فول هو ما علمني إياه والدي وما قلته الآن.

حسام: أنا كشاعر أعرف أيضاً أنّ للقصيدة الغزلية مقوماتها. فالجسد الأنثوي المتناسق في تقاطيع أعضائه، وتلك الذبذبات التي يبيثها ذلك الجسد ويستطيع الشاعر الحساس إتقاطها وتحويلها الى كلمات، ونور النفس أو ظلامها، شفافيتها أو كثافتها، هل النار تتأجج في مراجلها نار لهيب ودخان أم هي ضوء ورؤية، هل تنزل تلك النار على قلب الشاعر لهيب شبق وإثارة أم تنزل برداً وسلاماً وطمانينة وشعوراً بالأنس يجعل الإنسان من الله قاب قوسين أو أدنى، هذه مقومات ثابتة رغم ضجيج الحركة من حولها، حركة الشؤون السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وشجون موقع الإنسان في ساحة الإنتاج والقدرة على الإستهلاك وما شابه ذلك.

سليمان: كل موجود في هذا الوجود له جوهر وأعراض، الجوهر له صفة الثبوتية والأعراض هي في حركة تغيير مستمرة حسب تقلبات الأزمنة والأمكنة والأطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولكن مشكلة الإنسان اليوم هي أنه انشغل بالأعراض حتى بات عاجزاً عن رؤية الجوهر، فهو يراه ولا يشاهده، ويسمع صوته ولا يعي معناه.

صونيا: قد يكون السبب في ذلك هو محاولة النظام الرأسمالي العالمي تحويل الإنسان الى كائن مستهلك وإيهامه أنه كلما زاد استهلاكه كلما زادت سعادته وزاد تحقيقه لإنسانيته.

حسام: أو قد يكون سبب ذلك هو الإعتقاد الذي يدعمه أكثر علماء الاجتماع والمراجع الدينية والأنظمة الشمولية أنّ عقل الإنسان يولد كورقة بيضاء يكتب عليها من يشرف على تنشئته وتربيته الأفكار التي يريد. وبذلك يدخل الإنسان في ميدان النشاط الصناعي، فكما نضع سيارة أو قطار نضع إنساناً. ولكل صناعة التكنولوجيا الخاصة بها. وتحت هذه المظلة كانت المرأة الهندية قديماً تذهب الى محرقة زوجها الميت بكل طيبة خاطر وترمي بنفسها بين اللهب دون أي اعتراض أو ممانعة. وكذلك يذهب آلاف الشبان الى الموت في معركة عنصرية ضدّ أعداء، تريدهم القيادات أن يكونوا أعداء، وهم يظنون أنفسهم أبطالاً يختارون المجد وعلى رؤوسهم أكاليل الغار.

ستيفاني: أنتم دائماً تضعون الكمال في خانة الأعراض ولكن الحقيقة التي نعيشها تثبت غير ذلك. في حقيقة الأمر الرجال لا يتقاتلون إلا على المال والملكية.

صونيا: سمعت سليمان في إحدى المحاورات يقول: هناك أشياء يطلبها الإنسان لذاتها وهناك أشياء يطلبها الإنسان لغيرها. وقال أنّ المال يطلب لغيره لشراء سيارة أو ثياب أو بيت أو ملذات أو سلطة. ولكن المعرفة تطلب لذاتها لأنها هي الكمال الذي ما بعده كمال وخصوصاً إذا وصلت المعرفة الى منزلة الكليات المجردة.

هنا دعوني أسأل لقد رأيت آلاف أصحاب المعرفة يخدمون أصحاب المال ولم أرَ في حياتي صاحب مال واحد يخدم رجل معرفة فكيف يكون إذن المال عرض والمعرفة جوهر؟

خديجة: الإعلام بجميع أقسامه وفروعه هو في خدمة أصحاب المال وما ينتجه هؤلاء من سلع إستهلاكية يريدون تسويقها وإقناع الناس بحاجتهم اليها. المال هو عصب القوة والقوة هي التجسد الإلهي على أرض الواقع.

علاء: موضوع حوارنا اليوم هو الضمير وأراكم لا تتحدثون إلا عن شؤون المال وشجونته، فرسانه وعبيده، جلاليه وضحاياه.

حسام: المال هو ما يميل أعناق الرجال، وأنا شخصياً عنقي لا يميل إلا لينظر كنوز الملك سليمان تحت تتورة يتلاعب بها الريح أو شعراً أسود متهدلاً يراقصه الهواء والأهواء.

سليمان: القصة هي من أين نبدأ؟ هل نبدأ بأنّ الوجود وجد بالصدفة وكان من الممكن ألا يوجد، وهل نبدأ بأنّ الإنسان هو مجرد حيوان طورته الطبيعة بالصدفة فحاز على عقل يفكر بواسطته أصبح سيد الموجودات جميعاً. أم نبدأ بأنّ للوجود موجد قد أوجده وحدد أنواع الموجودات وصيرورة تطورها بقوانين تضبط ذلك، وهذه القوانين هي التي تعطي لكل نوع هويته النوعية التي تميزه عن غيره من الأنواع. وهل الإنسان مثله مثل بقية الحيوانات يملك فقط نفساً حيوانية هي نتيجة حرارة دورته الدموية، وهذه النفس هي التي تسيّر جميع حواس الجسد وأعصابه وآلاته حتى آلة الدماغ ثم تموت بموت الجسد وينتهي كل شيء وكأن شيئاً لم يكن. أم أنّ الموجد لهذا الوجود قد خصّ الإنسان بقبس من نوره الخالد الأزلي السرمدي هي نفسه الناطقة الخالدة السرمدية، وجعل الإنسان يملك عقلاً يستطيع أن يسأله به إذا جعل منه سعيداً حراً مسؤولاً ويستطيع أن يضعه في خدمة الأهواء والنزوات والرغبات والغرائز فيصبح عبداً لمن يملك القوة وهي المال كما قالت صونيا.

ستيفاني: أنا لا أؤمن إلا بالواقع الذي أعيشه وأتعامل معه لقد وجد الإنسان وهذا يكفي فلماذا نجلد أنفسنا بكرابيج من أوجده ولماذا وجد وما هي الغاية من وجوده،

إنه موجود وهو يسعى بوعيه وبلا وعيه ليحافظ على وجوده وليتمتع بوجوده ويتصدى لمن يحاول أن يلغي هذا الوجود. ولذلك أكبر عدو للإنسان برأيي هو الموت وبعده المرض وبعده الحروب وبعده الخوف من الآخر وكرهية الآخر وعدم الثقة بالآخر.

أنا شخصياً كمديرة بنك أتعامل مع الناس بوعيي وبلا وعيي بعدم ثقة وارتياب ودائماً أعيش هواجس أن يحتال أحدٌ على البنك ويبتزه بطريقة أو بأخرى.

علاء: ولماذا لا نقول إنك تعيشين هواجس كيف ستبتزين أنت الآخرين وتحتالين بوسائل لها تغطية قانونية لاستحلابهم الجزء الوفير من أموالهم؟

خديجة: قد يكون الإعتباران صحيحين ولكن النتيجة تبقى واحدة وهي عدم الثقة بالآخر وتوجس الإعتداء بطريقة ناعمة أو خشنة.

حسام: لا يمكن للصدفة العمياء الفوضوية أن تنتج وجوداً منظماً أحسن تنظيم بصيرورة قوانين غير قابلة للخطأ. فهل حركات الكواكب والأفلاك وحتى الإلكترونات داخل الذرة الواحدة يمكن أن تقبل الخطأ؟

خديجة: ولكن الإنسان ابن الخطأ، فإذا قسنا تصرفاتنا الخاطئة بالأخرى الصواب نرى كمية الخطأ تفوق كمية الصواب.

حسام: من فمك أدينك. إذن أنت تعترفين أن هناك صواباً وهناك خطأ. ولكنك لم تقولي لنا كيف أصبح الصواب صواباً وكيف أصبح الخطأ خطأ، أو لماذا اعتبرنا هذا صواباً واعتبرنا ذاك خطأ؟

علاء: كل إنسان إذا عاد الى عقله بتجرد يستطيع أن يعرف الصواب من الخطأ.

ستيفاني: ولكن العقل كما قيل سابقاً يولد ورقة بيضاء مؤسسات المجتمع تكتب عليه ما هو الصواب وما هو الخطأ.

خديجة: ومن قال أن مؤسسات المجتمع تكتب الحقيقة، إنها تكتب مصالحها ومنافعها وتعتبر ذلك صواباً وما يضرّ بتلك المصالح تعتبره خطأ.

علاء: ولما كانت مصالح المجتمعات ومنافعها مختلفة ومتضاربة أصبح الصواب والخطأ عملية نسبية، فما هو صوابٌ هنا هو خطأ هناك، وما هو خطأ هنا هو صواب هناك هذه دويخة الأطفال.

سليمان: إذا انطلقنا من مقولة أنّ الإنسان لا يملك إلا نفسه الحيوانية التي تموت بموت جسده، وأنّ هذه الحياة التي يعيشها هي فرصته الأولى والأخيرة، عندها لا يحقّ لنا أن نلوم إنساناً إذا ما كان إنتهازياً وميكيفيلياً يستعمل كل الطرق المتوفرة لديه ليصل الى المال والسلطة واللذة حتى ولو كان ثمن ذلك نهراً من الآلام والمصائب يقع فيه الآخرون ويتمرغون بوحوله.

صونيا: أليس هذا ما يحصل اليوم ولكن من وراء احتيال على القوانين وستائر حريرية ناعمة؟ ألا يستبيح الأقوياء والأغنياء والمتسلطون أتعاب الناس وكراماتهم وأعراضهم فيسخرونهم لمنافعهم طوعاً أو كرهاً من أن يرموا لهم في النهاية كسرة خبز ومأوى حقيراً وشربة ماء ملوثة. ألا تتكدس الثروات الخيالية في أيدي أفراد قلائل على حساب استغلال آلاف العمال والموظفين وتمنينهم بأنهم تحت الرعاية وإلا كان مصيرهم البطالة والتشرد؟ ألا نرى المتسلطين كيف يهبّون للفتك بالناس الضعفاء المهانين بلقمة عيشهم ومصادرة حرياتهم فقط لأنهم تجرأوا وطالبوا بجزء من حرياتهم وكراماتهم كبشر وتعودون الى الحديث عن الضمير.

علاء: كان أبي وهو يعلمني تقديم صحن فول للزبون يقول لي: وأنت تحضر صحن الفول عليك أن تتخيل أنك تقدمه لأمك أو لزوجتك فتحضره كاملاً لا يأتيه النقص من أي جهة كانت. هل تعلم لماذا؟ لأن الإنسان ابن مجتمعه كرامته جزء من كرامة الآخرين وسعادته جزء من سعادة الآخرين. لم يكن أبي شبه الأممي يفكر كما تفكرون الآن.

حسام: أنا في شعري أقول نفس الكلام الذي علمك إياه أبوك بصياغة لغوية مختلفة. أقول أنّ كل شيء جميل هو ملك المجتمع بكامله فلا يحق لأي فرد مهما كانت منزلته أن يحتكره لنفسه ويخبئه عن عيون الآخرين. فالحديقة الجميلة يجب أن تبقى مكشوفة ليراها جميع الناس ويتلذذوا بجمال ورودها ولا يحق لصاحبها أن يضرب

سوراً حولها يشبه سور الصين، والفتاة الجميلة يجب أن تظهر أمام الجميع بحسنها وبهائها لتكون مصدر إلهام للشاعر والرسام والنحات والموسيقي والمطرب والقائد ولا يجوز أن يأتي غني أو متسلط فيحتكرها لنفسه ويسجنها في قلعة محصنة بأزلامه فيحجبها عن الأعين وحتى عن الهواء الطلق والعصافير والفراشات.

خديجة: أنت الأديان فعلت الناس ما هو الحلال وما هو الحرام، وقالت أن الإنسان مكلفٌ عليه أن ينفذ ما كلف به ليكون من الصالحين وبذلك ألغت له عقله ومنعته من التفكير الحر لاكتشاف الحقائق بنفسه. ولكن الأديان تجاهلت مشكلة كيف يكون الإنسان فاضلاً عفيفاً محباً مضحياً صادقاً أميناً في ظل مجتمع يغتصب سلطاته الأقوياء الذين لا يعترفون إلا بمنطق قوتهم والذين يتحالفون مع الأغنياء لتسخير الجماهير الشعبية لمصالحهم دون أن يحسبوا لكراماتهم وإنسانياتهم أدنى حساب. السؤال يبقى مطروحاً طالما الإنسان كائن اجتماعي كما كان يقول والد علماء. هل يستطيع الإنسان أن يكون صادقاً وأميناً وفاضلاً في مجتمع يحكمه طغاة مستبدون يصادرون حريات الناس وعقولهم ويحاولون إعادة تصنيعهم كروبوتات لا ينطقون إلا بما يريده الحكام ولا يتصرفون إلا حسب مشيئة الحكام؟

سليمان: كل هذه العوائق لا تعفي الإنسان من سعيه الدؤوب لمحاولة تحقيق إنسانيته.

ستيفاني: دائماً ترددون هذه العبارة كيف يحقق الإنسان إنسانيته؟ أليس سعيه ليتعلم ويتخرج من جامعة محترماً ثم يأخذ مكاناً مرموقاً في سوق العمل يخوله أن يجني مالاً وفيراً يؤسس به بيتاً وأسرة ويعيش مرفهاً فإذا زاد ماله طلب الوجاهة فإذا زاد أكثر إشراباً عنقه نحو السلطة لينضم إلى جوقتها المهيمنة على المال والبشر والحجر.

خديجة: ولكي تهيمن على المال والبشر والحجر عليها أن تهيمن على الإعلام فهل تظنون أنه يوجد مركز إعلامي واحد مكتوب أو مرئي أو مسموع لا يقف وراءه في الظل مركز مالي أو سياسي.

حسام: أبشع ما يقوم به المحتكرون في بلادنا أنهم يحتكرون الجمال بكامل تمظهراته. احتكروا الشواطئ البحرية وكان الإنسان العادي لا يحق له أن يستمتع

بالشمس والهواء والمدى الأزرق البعيد. واحتكروا الأرض حتى لم يعد الفقير قادراً على شراء مركز قبر لا مركز عمار. واحتكروا النساء الجميلات فهنّ لا يظهرن إلا في الحفلات البرجوازية ويحتجن عن أعين العامة حتى ولو كانوا شعراء وفنانين. واحتكروا فرص العمل ووزعوها على أذلامهم وخدامهم. ولم يكفهم كل ذلك فعادوا ليحتكروا زراعة الحشيش والأفيون وتصنيعه وتسويقه ثم احتكروا أسواق الدعارة بالقوادين الذين يعملون لمصالحهم وإلا فالسجن في الإنتظار.

صونيا: كان القدماء يقولون أنّ الناس على دين ملوكهم. ألا يحقّ لنا اليوم أن نقول أنّ أخلاق الناس على دين أخلاق المتسلطين عليهم. فإذا كان أصحاب السلطة سمسرة أرض وعرض وشركات ومواقف سياسية ومخدرات، يغتصبون الثروات بالأنياب والأظافر والقرون فماذا نطلب من الناس العاديين أن يكونوا.

خديجة: في واقع حياتنا اليومية أرى أكثر الناس تعصباً للمفاهيم الدينية هم أكثرهم أخطاءً بتصرفاتهم اليومية. وكأن الشرور التي ارتكبوها أثقلت على كاهلهم فحاولوا أن يخففوا من عبئها برشوة السماء بحمل راية المظاهر الدينية والتكاليف الطقسية، والتكلم عن الإلفة والمحبة والعطاء والتضحية ثم ممارسة الكراهية ضدّ الآخرين والعنصرية ضدّ النساء ووضع الناس تحت مظلة الشكوك والظنون السوداء فهل هؤلاء هم ضمير المجتمع؟

صونيا: قبل أن نتحاور في ضمير الفرد وضمير المجتمع دعونا نلقي الأضواء على ماهية الضمير.

سليمان: لقد قلنا سابقاً أنّ الإنسان هو الكائن الحيّ الوحيد الذي يملك النفس الناطقة، وقلنا أنّ النفس الناطقة هي قيس نوراني فاض عن لاهوت الله، وجوهر هذه النفس الناطقة هو العقل القادر على عقل ذاته وعقل كل ما هو موجود خارج ذاته وعقل ما يفيض عليه من العقل الكلي وفي حالات الوجد الصوفي من الله.

خديجة: وأين يقع الضمير من كل ما قلت؟

سليمان: النفس الناطقة جوهرٌ روحاني غير قابل للتجزئة والفناء لأنه بسيط وليس مركباً، ولكننا نظرياً نقول أنّ أحد أبعاد تلك النفس الناطقة بعدُ نسميه العقل الغريزي، وعلى مرآة هذا العقل الغريزي نقشت العناية الإلهية كل حقائق الوجود البديهية منذ ظهور النفوس الناطقة من النور الشعشعاني الإلهي، وهذا العقل الغريزي هو ما نسميه الضمير. وعندما نقول لشخص ما "عد الى ضميرك وبعدها أصدر حكمك على الأشياء"، كأننا نقول له أنظر الى داخل ذاتك الى مرآة العقل الغريزي واقراً ما هو منقوش على جوهره من حقائق بديهية واحكم على الأشياء من خلال ما رأيت من حقائق هناك.

ستيفاني: وكيف ننتع إنساناً يرتكب الأخطاء ويتباهى ويعتبر ذلك فتوة ورجولة هل نقول أنه بلا ضمير.

سليمان: لا يوجد إنسان واحد في هذا الوجود بلا ضمير فانه عادل وقد نقش على جواهر كل العقول الغريزية نفس الحقائق ولكن بعض الناس اشتغلوا على أنفسهم فزادوا مرايا جواهر نفوسهم صقلاً بأعمالهم وأفكارهم المتناغمة مع تلك الحقائق البديهية، فأشرقت شمس تلك الحقائق فأضاءت ذواتهم ودروبهم ومسالكهم وهؤلاء الذين قيل عنهم أنّ لهم نوراً يمشون به بين الناس. وآخرون اشتغلوا على شهوات أنفسهم ونزواتهم فزينت لهم شياطين أو هامهم أنهم بتملك المال والسلطة يشبعون جميع رغباتهم ويحققون جميع أمنياتهم فتجاهلوا كل الحقائق المنقوشة على جواهر عقولهم الغريزية واستباحوا كل ما توصلت اليه العقول المكتسبة من حقائق فسخروا المعرفة لخدمة أو هامهم الجامحة وملذاتهم المنحرفة. أولئك الناس بسوء أعمالهم وأفكارهم طمسوا مرايا جواهر عقولهم الغريزية فاحتجبت الحقائق تحت طبقة كثيفة من صدأ الأخطاء المتراكمة. هؤلاء الناس نقول أنّ الضمير قد مات فيهم. إنه قد مات بالفعل ولم يمت بالقوة لأنهم لو عادوا الى سراط العقل ومنطقه لابتدأ الصدا يزول عن مرايا نفوسهم رويداً رويداً الى أن تعود تلك المرايا مصقولة صافية من جديد تشع منها أنوار الحقائق البديهية التي هي المثل التي صنعت على نماذجها كل الممثلات الحسية في واقع حياتنا الدنيا.

حسام: العقل الشرقي عقلٌ مريض منذ بدء الحضارة الإنسانية كل أنبياء الشرق وحكمائهم قدموا لنا تعاليم ممتازة لتعامل الفرد مع نفسه وأطنبوا في شروحاتهم للحلال والحرام وما يريده الله وما لا يريده. ولكني لم أجد واحداً من هؤلاء إنتبه الى أنّ المجتمعات ليست مجرد مجموع أفراد تراكموا فوق بعضهم أو جمعتهم الصدفة، ولكن المجتمعات كائنات عضوية كما الأجساد لبشرية تماماً، وكما الجسد يسير بناءً على قوانين وخطّة عمل متكاملة كل عضو فيه في مكانه المناسب ويؤدي وظيفته متناغماً مع الخطّة العامة لعمل الجسد كذلك المجتمع يجب أن تسيّره خطّة عمل متكاملة فالشرائح الإجتماعية متناغمة في عملها وليست متضاربة والسلطة تقدم الرعاية والسهر الدؤوب على التوازن وتعطي لكل فرد وشريحة حقها ولا تبتز الجميع لتحقيق رغباتها التي غالباً ما تكون أوهاماً وخرافات صنعتها الشهوات الجامحة الى التملك والسلطة بواسطة المال والقوة. كيف يمكن للإنسان أن يعيش في ظلّ نظام حكم شمولي يضع الناس تحت مغناطيس الخوف والقلق بواسطة أجهزة أمنية لا هم لها إلا تفريق ما تجمع وتشتت ما توافق وزرع الخلاف والشقاق بين الناس والطبقات والشرائح والأثنيات والأديان حتى لا يبقى أحد يحب أحداً أو أحد يثق بأحد فيصبح الخوف من الآخر هو القاعدة وليس شواذها والقلق على لقمة العيش هو الهم السائد. كيف نطلب من الناس ضميراً في مجتمعات ذكورية تضطهد النساء وتتكلم بهنّ وتسجنهنّ في البيوت ووراء الأقفلة تحت شعار أنّ جسد المرأة عورة، وأنّ المرأة ناقصة العقل لا تؤتمن على الكرامة وهي التي تغري الرجل بكل الشرور والمفاسد. ثم نعود الى تاريخ الشرق فنراه مليئاً بالغلّمان والخصيان الذين يزاحمون النساء على الفراش حتى أنّ هؤلاء الخصيان المماليك استطاعوا أن يحكموا هذا الشرق مئات السنوات بنفس قانون الإستباحة الذي مورس عليهم.

صونيا: كأنك تريد أن تقول أنّ الضمير مشكلة مجتمع ودولة وسلطة وليس فقط مشكلة فرد .

حسام: إنها مشكلة مجتمع ودولة قبل أن تكون مشكلة فرد. أنا شخصياً أو من أنّ الدولة هي تجسيد حيّ لإرادة الله على الأرض، ولكي تكون كذلك يجب أن تكون دولة عادلة تسنّ قوانين عادلة تعطي لكل مواطنها التساوي في حقوق العلم والعمل

حتى يتواجد كل مواطن في مكانه الذي يتناسب مع قدراته العقلية والعملية، وتكون القوانين مستوحاة من الخير العام والمصلحة العليا للمجتمع وهذا الخير العام لا بدّ من أن يكون متناغماً مع قوانين العقل التي تحدث عنها سليمان ومع ما نقش من الحقائق البديهية على مرايا جواهر العقول الغريزية منذ بدء التكوين.

خديجة: وكأنك تقول أنّ هذا الشرق يسبح عكس التيار فنحن نطلب من الأفراد أن يكون لهم ضمير في مجتمع لا ضمير له وسبب ذلك أنّ السلطة في هذا المجتمع سلطة شمولية استباححت حريات الناس وصادرت عقولهم فطمست بأنظمتها الأمنية التي تعتمد زرع الخوف والقلق مرايا عقول الناس الغريزية وقيم ومعارف علومهم المكتسبة حتى أصبح الناس عبيد إرادات حكامهم، لغتهم هي التزلف والكذب والنفاق والتملق والإستزلام، كل ذلك لصنع إنتماء وهمي يظنون أنه سيحميهم من الخوف والقلق.

علاء: أنا أفهم من كل ما سمعته أنه شبه مستحيل أن نحاول إحياء ضمائر الأفراد في أنظمة مستبدة ظالمة لا تفهم إلا منطق القوة والنفوذ بالمال والأجهزة وزرع الخوف والقلق وتمزيق نسيج المجتمع حتى لا يهتم الشخص إلا خلاصه الفردي إن استطاع.

حسام: إنتيقبت مرة في حفل فرح أحد رجال الأعمال وهو يملك شركة كبرى في الخليج تضم آلاف الموظفين والعمال، عرفني على نفسه وقال أنه معجب بشعري ويودّ أن يجالسنني ليزيد التعارف ونصبح أصدقاء. ما إن ابتدأنا شرب القهوة حتى أخذ يحدثني عن سرّ نجاحه وقدرته على كسب ملايين الدولارات في فترة زمنية قصيرة. قال لي أنه يأخذ من جبل لبنان وراشيا موظفين وعمالاً يدرّبهم ثلاثة أشهر في مؤسسة له في الجبل ثم يأخذهم الى الخليج حيث أعدّ لهم مساكن تشبه التكنات ومطبخاً عملاقاً للأكل الجماعي، ويعطي الواحد منهم معاشاً شهرياً قدره خمسمائة دولار. وعندما قلت له وكيف يقبلون بهذا المعاش الزهيد أجابني أنهم يأكلون وينامون على حسابه وهو قد أشفق عليهم عندما وظفهم لأنه أنقذهم من البطالة والتسكع وأنقذ المجتمع من شرورهم وهم بطالين. وهو كان باستطاعته لولا ضميره الحيّ وحبّه لمجتمعه أن يتعاقد مع عمال بنغاليين بثلاث مائة دولار. قلت له ولكن

الشركة تربح عشرات الملايين فمن حقّ العمال أن تكون حصتهم ولو عشرة بالمئة من الأرباح، أجابني كيف أبذر مالي وأعطيه لعمال طالما أنّ سوق العمل يسمح لي بأن أوظفهم بهذه المبالغ الصغيرة، قلت له القصة إذن هي قصة عرض وطلب لسوق العمل وليست قصة حقّ الإنسان الكادح بالكرامة والعدالة. عندها أخذ رجل الأعمال يجتهد في إعطاء براهين أنه رجل محسن يجبر عثرات الأرامل والمرضى في الجبل وهو صاحب ضمير ولولا ذلك لما أدخل الى شركته لبنانياً واحداً.

سألت عنه أفراد من الجالية فقالوا لي هذا رجل متدين لا يشرب الخمر ولا يجري وراء الروسيات والأوكرانيات وهو يعقد مجالس إرشاد ديني في بيته كل أسبوع فهو صاحب ضمير حيّ ومحسن كبير. سألت نفسي يوماً عن مفهوم الضمير عند الناس فمن يستغل الآخرين ويكس من عرق جبينهم وإحباطهم ثروة خيالية بحجة أنّ سوق العمل يسمح له بذلك وبحجة إستغلال الأوضاع الصعبة التي خلقتها الأحداث في جبل لبنان نقول عنه أنه صاحب ضمير ومتدين فهل القصة أصبحت قصة شكليات وبوزات ودعاية إعلامية كما هو حاصل اليوم. والأدهى من كل ذلك أنّ أمثال هؤلاء الناس هم عن حقّ وحقيق مقتنعون بأنهم أصحاب ضمير والمجتمع كذلك مقتنع بأنهم أصحاب ضمير.

ستيفاني: صدقوني أيها الأصدقاء أنّ أكثر الشيكات بدون رصيد التي تقدم لنا في البنك هي من أناس يعتبرهم المجتمع متدينين وأصحاب ضمير وأنا نعاني الأمرين في التعامل مع هكذا أوضاع.

خديجة: السنة الماضية طلب مني أبحاث معمقة عن أفساط المدارس الخاصة ومقارنة ذلك بمعاشات الأساتذة والموظفين. كانت نتيجة أبحاثي أنّ المدارس التي تديرها مرجعيات دينية والتي لها سمعة عطرة في المجتمع هي أكثر المدارس أجاداً بحقّ أساتذتها وخصوصاً المعلمات لأنها تستغل شعور أهلهم بأنهم محافظ عليهم وفي أيادي أمينة.

سليمان: أنا شخصياً أنطلق من قاعدة عقلانية في تقييم هذا الموضوع. أقول أنّ كل إنسان يعتبر نفسه فاضلاً والآخرين ساقطين، ومؤمناً والآخرين ملحدين، ومتديناً

والآخرين مهرطقين، وهو في الجنة والآخرين في النار. هذا الإنسان أنا اعتبره بلا ضمير حتى ولو كان متنسكاً في إحدى الخلوات أو متصوفاً في إحدى المغاور.

صونيا: صاحب الضمير هو الإنسان الذي يسعد لسعادة الآخرين ويحزن لحزنهم، يعتز لعزهم ويشقى لشقائهم، هو الإنسان الذي يفرح لنجاح الآخرين ويأسى لفشلهم وهو الذي يحب الخير لكل الناس كما لنفسه ويساعد الناس على تطوير أنفسهم كما يساعد نفسه، وهذا يجعله عادلاً مع الآخرين في أقواله وأفعاله فيحترم حقوقهم وخصوصياتهم وآراءهم ولو كانت متباينة مع آرائه لأنه يعرف أنه رغم التباين هناك قاسم مشترك هو الخير العام. بكلمة موجزة صاحب الضمير يرى نفسه على مرايا الآخرين وبذلك هو سعيد عندما تكون مرايا الآخرين مصقولة نظيفة طاهرة وتعييس عندما تكون مرايا الآخرين قد طمست بصدأ الأعمال المخالفة لمنطق العقل والمصلحة العليا للمجتمع.

علاء: حدثنا سليمان عن الحقائق البديهية المنقوشة على جوهر العقل الغريزي منذ بدء التكوين، وقال أنّ هذه الحقائق هي الضمير، فهلا تكرم سليمان وأعطانا بعض الأمثلة عن تلك الحقائق.

سليمان: حباً وكرامة... إكتسب الإنسان هويته الإنسانية بالعقل والعقل هو القدرة على التفكير والتأمل والتحليل والإستنتاج والخلق والإبداع هذه حقيقة بديهية مركزية تعزز حقائق بديهية فرعية وهي أنّ أكبر عدو للإنسان هو المرجع الذي يحاول أن يصادر له عقله ويمنعه من التفكير الحرّ والتأمل والخلق والإبداع أو يحاول أن يعرقل هذا العمل بالطقوس والقوالب الجامدة. كذلك الإنسان حرّ أن يختار أعماله بملء إرادته ولأنه حرّ هو مسؤول، هذه حقيقة بديهية أخرى يتفرع منها أنّ الإنسان لا يحقّ له أن يحمل القدر مسؤولية ما وصل إليه وحلّ به لأن النتيجة هي وليدة مقومات. حقيقة بديهية أخرى أنّ الإنسان الشريف لا يحقّ له أن يأخذ إلا بقدر ما يعطي، ولا يحقّ له أن يكون إلا في المكان الذي تؤهله إمكانياته العقلية والعملية أن يكون فيه، ولا يحقّ له أن يدّعي إحتكار المعرفة أو الفضيلة أو الإيمان لأنّ لكل فرد إنساني طريقه الخاصة الى المعرفة والفضيلة والإيمان كما بصمة يده الخاصة به، والإنسان لا يحقّ له أن يعتدي على نفسه بمخالفة تصرفاته لقوانين العقل والطبيعة،

ولا يحقّ له أن يعتدي على الآخرين باغتصاب ثمرة أتعابهم والتدخل في خصوصياتهم ومصادرة عقولهم وحرّياتهم وإملاء رغباته عليهم، والإنسان يجب أن يسعى دائماً لتطويع نفسه وتطويع مجتمعه لأنّ الحركة هي قانون الحياة الأبدي السرمدى ولا شيء جامد. كل ذلك حقائق بديهية إذا تناغمنا معها فنحن أصحاب ضمائر حيّة نكافأ بالسعادة وإذا اتبعنا المخالفة والمضادّة فنحن أصحاب ضمائر ميتة نعاقب بالتعاسة.

حسام: الحقيقة البديهية الوحيدة المنقوشة على جوهر عقلي الغريزي هي الجمال، كيفما تمظهر الجمال أسجد له وأصلي، وأينما حلّ أدخل محرابه وأبتهل، وإذا ما رأيتَه قد تقمص جسد صبية مغناج أحاول أن أحلّ فيه وأذوب وأفنى، الجمال هو التوازن هو التناسق هو نظرية العدد عند فيثاغورس هو عالم المثل عند أفلاطون هو اللمعات عند السهروردي، الجمال أن أرى الله متربعاً على عرش قلبي، الجمال أن يرى الحبيب صورته على مرآة المحبوب والتناغم مع الجمال هو الضمير.

الجميع: التناغم مع الجمال هو الضمير.

كمال يوسف سري الدين